

أَسْأَلُكُمْ عَنْ التَّنَاقُضِ وَالْاِخْتِلَافِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

بقلم د. حسن أحمد جبر

مدرس بقسم التفسير

● موهم التناقض والاختلاف هو :

ما يوهم التعارض بين ظاهر الآيات القرآنية .. والحق أنه لا تعارض
ولا اختلاف بينها في الواقع ونفس الأمر ، بل مآلها دائما الائتلاف :

القرآن منزله عن الاختلاف :

لقد جعل الحق جل في علاه من أدلة اعجاز القرآن صدقه وائتلافه ،
والدليل على أنه من عند الله عدم وجود تناقض فيه أو اختلاف ، فيقول
سبحانه : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافا كثيرا) (١) .

يقول الامام ابن كثير في تفسيرها : أى لو كان مفتعلا مختلقا كما يقوله
من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ، لوجدوا فيه اختلافا ،
أى اضطرابا وتضادا كثيرا ، أى وهو سالم من الاختلاف ، فهو من عند
الله . ١٠ هـ .

فسلامة القرآن من التضارب والاختلاف دليل على أنه من عند الله تعالى
وحده ، ولا يتأتى أبداً - والحال هكذا - أن يكون من عند غيره ، لا في قليله
ولو كلمة واحدة - ولا في كثيره على طول آياته وسوره كلها من أوله لآخره
اذ لو كان من عند غيره لوجد فيه الاختلاف على كثرة ، وظهر التعارض

(١) النساء ٨٢

والتناقض بين آياته وأخباره وأحكامه ومبانيه ومعانيه ، لكن الصدق قد
أُطرد في كل كلماته وآياته في كل مبانيه ومعانيه ، فدل على أنه من عند
الله وحده .

يقول سبحانه : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خبير) (١) .

فقد نظمت مبانيه ومعانيه نظما رصينا محكما لا يعتريه نقص ولا خلل
ولا تناقض ولا تفكك ، فهي كالبناء المحكم المتقن غاية الاتقان والاحكام ،
ثم جعل سورة سورة وآية آية ، فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة ،
فصل فيها ما يحتاج اليه العباد .

ويقول تعالى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له
عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون
الصالحات أن لهم أجرا حسنا) (٢) .

فقد جعله سبحانه كتابا مستقيما لا اعوجاج ولا تعارض فيه ، ولا زيغ
ولا ميل ، فهو يهدي الى صراط مستقيم واضح بين ، نذيرا للكافرين بشيرا
للمؤمنين .

ويقول سبحانه : « ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز
لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٣) .

فينفى المولى عن القرآن الكريم تطرق الفساد اليه ، سواء أكان ذلك
اختلافا أم غيره ، فساحة القرآن العزيز منزّه عن الزيادة والنقصان
والتحريف والتبديل والتناقض والاختلاف ، فكل ذلك داخل في الباطل
المنفى عنه « من بين يديه ولا من خلفه » من أى وجه من الوجوه ، أو أية
جهة من الجهات لا من جهة لفظه ولا من جهة معناه .

(١) هود ١

(٢) الكهف ١ ، ٢

(٣) فصلت ٤١ ، ٤٢

جاء في كتاب « مقدمتان في علوم القرآن • لارثر جفري » في هذا المعنى قوله : فكما أن ظاهره حجة على فصحاء العرب في نظمه ، فكذلك باطنه حجة على علماء العجم بحكمه وعلمه ، وكما أن ظاهره مربوط بنظم لا يتطرق اليه عيب ، فكذلك باطنه مبسوط بحكم لا تبقى معه مادة لريب . . وكما أن ظاهر نظمه لو وقع فيه خلل لكان للطاعنين فيه مقال ، فكذلك ان وقع في نظم معانيه زلل لكان للمعرضين عنه مجال ، والى ذلك أشار الحق بقوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . أ هـ .

إذا فالنصوص القرآنية متضافرة على سلامة القرآن العزيز من الاختلاف والتناقض الحقيقي .

وقد أكد المصطفى ﷺ - ذلك ووضح أن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه بعضا .

أخرج الامام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخى مجلسا ما أحب أن لى به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ - على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجزه - (أى منفردين) اذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ - مغضبا حتى أحمر وجهه يرميهم بالتراب ، ويقول لهم : « مهلا يا قوم بهذا أهلكم الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض ، ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، انما نزل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » . أ هـ .

ومما يؤكد ما تقرر من سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض ، أنه نزل بحضرة أناس وبين ظهرانى قوم كانوا أحرص الناس على أن يجدوا فيه مغمزاً أو يدركوا فيه مطعنا ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، فلو كان فيه تناقض لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه والتشهير به ، لكنهم لم يجدوا فيه شيئا من ذلك على حقيقته ، بل ظهر عجزهم أمام مبانيه ومعانيه .

● أنواع الاختلاف : الاختلاف على قسمين :

١ - اختلاف التناقض :

وهو ما يكون أحد الشئيين فيه مبطلا للآخر ورافعاً له ، فيضاد ، من كل جهة .

وهذا هو الذى لا يوجد فى القرآن أبداً ، فلا تراه يثبت شيئاً فى موضع ثم ينفيه من كل جهاته فى موضع آخر . . كذلك لا يوجد تناقض بين ما جاء به القرآن وبين ما يثبته العقل والبرهان والملاحظة ، لأن كلا منهما حق ، والحق لا يتناقض مع نفسه .

يقول القاضى أبو بكر - فيما نقله عنه السيوطى - لا يجوز تعارض أى القرآن والآثار ، وما يوجب العقل ، فلذلك لم يجعل قوله تعالى : « الله خالق كل شيء » (١) معارضا لقوله سبحانه « وتخلقون افكا » (٢) ، « واذ تخلق من الطين » (٣) لقيام الدليل العقلى أنه لا خالق غير الله ، فتعين تأويل ما عارضه ، فيؤول « وتخلقون » على : تكذبون و « تخلق » على : تصور . أه من الاتقان أما اذا استحكم السلب والايجاب بين آيتين ، بأن تثبت أحدهما حكما وتنقضه الثانية ، وتعذر الجمع والتأويل بأى طريق من الطرق كحمل المطلق على المقيد ، أو العام على الخاص ، وغير ذلك مما قرره العلماء ، اذا لم يمكن ذلك ، يكون فيهما نسخ ، بأن يرفع المتأخر نزولا حكم المتقدم نزولا ، فيعمل بالمتأخر منهما . . ولا يلجأ الى القول بالنسخ الا فى أضيق الحدود عند استحكام التعارض من كل وجه وعند اقامة الدليل الصحيح عليه ، كما يعلم ذلك بالتفصيل فى مبحثه والحكمة منه ، ووقوع ذلك بالفعل شرعا وعدم امتناعه عقلا . .

قال تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) (٤) .

(٢) العنكبوت ١٧

(٤) البقرة ١٠٦

(١) الزمر ٦٢

(٣) المائد ١١٠

ذكر السيوطى فى الاتقان عن أبى اسحاق الاسفرايينى قوله : اذا تعارضت الآى وتعذر فيها الترتيب والجمع ، طلب التاريخ ، وترك المتقدم بالمتأخر ، ويكون ذلك نسخا ، وان لم يعلم وكان الاجماع على العمل باحدى الآيتين ، علم باجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل بها ، ولا يوجد فى القرآن آيتان متعارضتان تخلوان عن هذين الوصفين ١٠ هـ .

ونقل عن الصيرفى قوله : جماع الاختلاف والتناقض : أن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه الى وجه من الوجوه ، فليس فيه تناقض وانما التناقض فى اللفظ : ما ضاده من كل جهة ، ولا يوجد فى الكتاب والسنة شئ من ذلك أبدا ، وانما يوجد فيه النسخ فى وقتين ١٠ هـ .

وقال الكرمانى - فيما نقله عنه : الاختلاف على وجهين : اختلاف تناقض ، وهو : ما يدعو فيه أحد الشيئين الى خلاف الآخر ، وهذا هو الممتنع على القرآن ٠٠ وذكر النوع الثانى وهو :

٢ - اختلاف تلازم :

وهو ما يوافق الجانبين ، كاختلاف مقادير السور والآيات واختلاف الأحكام من الناسخ والمنسوخ والأمر والنهى والوعد والوعيد ١٠ هـ .

وذلك أيضا كاختلاف وجوه القراءات والأحرف السبعة ، فهو اختلاف تنوع فى طرق الأداء فى دائرة محدودة لا تعارض ولا تناقض بين أحكامها ومعانيها ، لذلك عدوا القراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الايمان بها واتباع ما تضمنته علما وعملا فجمع - مثلا - بين قراءة النصب والجر فى (وأرجلكم) - بالمائدة - بحمل النصب على الغسل والجر على مسح الخفين ، كما يعلم ذلك بالتفصيل من مباحثها .

وبهذا الايضاح يسقط قول المفتريين : ان هذا يثبت الاختلاف فى القرآن ويظهر بذلك بطلان هذا الافتراء وانه لا وجه ولا مقام له ، وصدق الله « ومن أصدق من الله قيلا » : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

توضيح للامام الغزالي : لما سئل عن معنى هذه الآية الكريمة قال (١) .
الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، وليس المراد نفى اختلاف الناس
فيه ، بل نفى الاختلاف عن ذات القرآن ، يقال : هذا كلام مختلف ، أى :
لا يشبه أوله آخره فى الفصاحة ، اذ هو مختلف ، أى بعضه يدعو الى الدين
وبعضه يدعو الى الدنيا ، أو هو مختلف النظم فى الأسلوب ، وكلام الله منزّه
عن هذا الاختلاف ، فانه على منهاج واحد فى النظم مناسب أوله آخره ،
وعلى مرتبة واحدة فى غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ،
ومسوق لمعنى واحد وغرض واحد هو دعوة الخلق الى الله تعالى وصرفهم
عن الدنيا الى الدين . . . وكلام الأدميين يتطرق اليه هذه الاختلافات ،
اختلاف فى منهاج النظم ، ثم اختلاف فى درجات الفصاحة ، بل فى أصل
الفصاحة ، حتى يشتمل على الغث والسمين ، ولا تتساوى قصيدتان
ولا رسالتان لا فى الأغراض ولا فى فصاحة البيان ، ولا ينفك كلام آدمى عن
هذا لأن الانسان تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه
ويتعذر عليه عند انقباضه ، فيميل غرضه مرة الى الشئ ويميل عنه أخرى
فيوجب ذلك الاختلاف بالضرورة . . فلا تصادف اللسان يتكلم فى ثلاث
وعشرين سنة وهى مدة نزول القرآن فيتكلم على منهج واحد بأسلوب بيانى
فصيح واحد وعلى غرض واحد ، فلو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجد
فيه اختلاف كثير . . فأما اختلاف الناس فهو تباين فى آراء الناس لا فى نفس
القرآن ، قال تعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به
الا الفاسقين » (٢) فذكر أن القرآن فى نفسه غير مختلف ، وهو مع هذا سبب
لاختلاف الخلق فى الضلال والهدى ١٠ هـ .

(١) بتصرف وتلخيص من البرهان للزركشى ٢ / ٦٢

(٢) البقرة ٢٦

منشأ هذا المبحث :

لما كان كل اختلاف اذن لا يعنى تناقضا وكان من المقرر سلفا أن آيات القرآن لا تناقض بينها ، وكان هناك كثير من الآيات القرآنية قد يقع للمبتدئ ما يوهم بظاھرھا أن بينها اختلافا وتناقضا ، وكانت هذه ظاهرة تدعو الى التساؤل والدراسة والبحث لبيان وجه ائتلافها ، فقد احتيج اذن لازالة هذا الاختلاف المتوهم ، ومن ثم نشأ هذا النوع من الدراسات القرآنية من أنواع علوم القرآن ، واجتهد فيه المفكرون والمفسرون منذ فجر الثقافة الاسلامية ، وساهم الزنادقة والملاحدة في توجيه الانظار اليه والاهتمام به بما أوردوه من مناقضات واهية على القرآن الكريم ، مثلما صنف في مختلف الحديث ومشكله وبيان الجمع بينهما .

يقول الامام الزركشى : وقد رأيت لقطرب (١) فيه تصنيفا حسنا جمعه على السور ، وقد تكلم فيه من الصدر الأول ابن عباس وغيره ١٠ هـ .

فقد نقل السيوطى ما رواه عبد الرزاق في تفسيره : أن رجلا سأل ابن عباس عن أشياء اختلفت عليه من القرآن ، فقال ابن عباس : هات ما اختلف عليك من ذلك ، قال : أسمع الله يقول : « ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » (٢) . وقال : « لا يكتُمون الله حديثا » (٣) . فقد كتبوا . وأسمعه يقول : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » (٤) ثم قال « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » (٥) . وقال : « قل ائنيكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين ٠٠ » حتى بلغ « طائعين » (٦) ثم قال فى الآية الأخرى : « أم السماء بناها » (٧) ثم قال : « والأرض بعد ذلك دحاها » (٨) . وأسمعه يقول : (وكان الله) ما شأنه يقول (وكان الله) !! ١٠ هـ . (٩) .

(١) محمد بن المستنير عالم نحوى بصرى توفى ٢٠٦ هـ وكتابه هو الرد على الملحدين فى تشابه القرآن (البرهان محقق ٤٥/٢) .

- | | |
|--------------------|----------------------------|
| (٢) الأنعام ٢٣ | (٣) النساء ٤٢ |
| (٤) المؤمنون ١٠١ | (٥) الصفات ٢٧ |
| (٦) فصلت ٩ - ١١ | (٧ ، ٨) النازعات ٢٧ ، ٣٠ |
| (٩) الاتقان ٨٨/٣ | |

ثم ذكر جواب ابن عباس له - كما سيأتى - ثم قال ابن عباس له :
فما اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرت لك ، وان الله لم ينزل شيئا
الا وقد أصاب الذى أراد . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ١٠ هـ .

وأضع هذه الآيات وغيرها وبيان ابن عباس وغيره لها كنماذج هنا
لأمثلة ظاهرها الاختلاف وحقيقتها الائتلاف ، مستقاة مما ذكره الزركشى فى
البرهان والسيوطى فى الاتقان والخطيب الاسكافى فى درة التنزيل فى بيان
متشابه النظم وغيرها من بعض كتب التفسير ، وذلك حسبما يتسع له المقام
هنا - وبالله التوفيق .

« (نماذج من الآيات القرآنية التى ظاهرها الاختلاف) »

وبيان أن حقيقتها الائتلاف

النموذج الأول :

قوله تعالى « ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين »
أى : لم تكن حجتهم ومعذرتهم عما سلف منهم من الشرك بالله وعاقبته
الا التبرؤ منه وانكاره يوم القيامة ، ومفاد هذا : أنهم سيكتمون كفرهم فيه .

وذلك مع قوله عنهم فى هذا اليوم : « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا
الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » . فقال السائل : فقد
كتموا . والجواب - ما قاله ابن عباس

أنهم لما رأوا يوم القيامة وأن الله يغفر لأهل الاسلام ، ويغفر الذنوب
ولا يغفر شركا ، ولا يتعاضمه ذنب أن يغفره ، جحد المشركون شركهم رجاء
أن يغفر لهم ، فقالوا « والله ربنا ما كنا مشركين » . فحتم الله على أفواههم
فتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون ، فعند ذلك « يود الذين كفروا
وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » .

وجواب آخر : مروى عنه أيضاً - قال : ان الله اذا جمع الناس يوم
القيامة ، قال المشركون : ان الله لا يقبل الا ممن وحده ، فيسألهم ، فيقولون
« والله ربنا ما كنا مشركين » قال : فيختم على أفواههم وتستنطق وجوارحهم
أهـ .
وحاصل الجواب : أنهم يكتمون بالسنتهم ، فينطق الله أيديهم
وجوارحهم ، فلا اختلاف .

النموذج الثانى :

قوله تعالى « فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »
مع قوله سبحانه : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » .

والجواب : قاله ابن عباس :

انه اذا نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من
شاء الله ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . ثم نفخ فيه أخرى ، فاذا هم
قيام ينظرون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

وحاصله : ان نفى المسألة عند النفخة الأولى ، وإثباتها فيما بعد
النفخة الثانية فلا تعارض اذن .

ومعنى آخر : لابن مسعود : فقد تأول نفى المسألة على معنى عدم
طلب بعضهم من بعض العفو ، فقال - كما فى تفسير ابن جرير - يؤخذ بيد
العبد يوم القيامة ، فينادى : ألا ان هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له حق قبله
فليأت ، قال : فتود المرأة يومئذ أن يثبت لها حق على أبيها أو ابنها أو أخيها
أو زوجها ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون .

وقال من طريق آخر : لا يسأل أحد يومئذ بنسب شيئاً ، ولا يتساءلون
به ولا يمت برحم أهـ . (١) .

النموذج الثالث :

قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » (١) .

وفى آية فصلت أيضاً التى ذكرها السائل وفيها « ثم استوى الى السماء » بعد ذكر « خلق الأرض فى يومين » قبلها . ثم قال فى أخرى : « أم السماء بناها » ثم قال « والأرض بعد ذلك دحاها » بالنزعات . والسؤال يدور حول تقديم خلق الأرض فى موضع على خلق السموات وتأخير خلقها عنها فى موضع آخر .

والجواب : قاله ابن عباس :

أما قوله « خلق الأرض فى يومين » فان الأرض خلقت قبل السماء ، وكانت السماء دخاناً ، فسواهن سبع سموات فى يومين بعد خلق الأرض ، وأما قوله « والأرض بعد ذلك دحاها » أى : جعل فيها جبلاً وجعل فيها نهراً وجعل فيها شجراً وجعل فيها بحوراً . أهـ .

وحاصل الجواب : أن الأولى دلت على أن الأرض وما فيها خلقت قبل السماء وذلك صحيح . ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء .

فالمتأخر عن خلق السموات إنما هو دحو الأرض لا ابتداء خلقها وبذلك تتفق معانى الآيات .

وقيل أجوبة أخرى : منها : أن (ثم) بمعنى الواو . فلا إيراد . لأن الواو لمطلق الجمع ولا تقتضى الترتيب .

ومنها : أن المراد ترتيب الخبر لا الخبر به ، كقوله تعالى « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » (٢) .

ومنها : أن (ثم) على بابها ، وهى هنا لتفاوت ما بين الخلقين –
أى للترتيب الرتبى – لا للتراخى فى الزمان ، فخلق السموات أعظم من خلق
الأرض .

ومنها : أن (خلق) بمعنى قدر (١) .

النموذج الرابع :

فى قول السائل : وأسمعه يقول : (وكان الله) ما شأنه يقول
(وكان الله) :

والجواب : قاله ابن عباس : أن الله كان ولم يزل كذلك ، وهو كذلك
عزيز حكيم عليم قدير رحيم ، لم يزل كذلك .

وحاصلة : أن (كان) وإن كانت للماضى ، لكنها لا تستلزم الانقطاع ،
بل المراد أنه لم يزل كذلك ، فإن من مدلولات (كان) الدوام والاستمرار فى
الماضى والحال والاستقبال .

وقد ذكر السيوطى للكرمانى توضيحات للجواب ، فقال : يحتمل أن
يكون ابن عباس أجاب بجوابين : أحدهما : أن التسمية هى التى كانت
وانتهت – أى لأن التعلق انقضى – وأما الصفة فلا نهاية لها ، فلا تزال كذلك
لا تنقطع ، لأنه تعالى إذا أراد المغفرة أو الرحمة فى الحال أو الاستقبال
وقع مراده .

والآخر : أن معنى (كان) الدوام ، فإنه لا يزال كذلك . وقد قال
النجاة : (كان) لثبوت خبرها ماضيا دائما أو منقطعا .

وقد سأل يهودى ابن عباس : انكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيمًا ،
فكيف هو اليوم ؟ فقال : انه كان فى نفسه عزيزا حكيمًا . أ هـ .

النموذج الخامس :

قوله تعالى : « ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا من لغوب » (١) وقوله سبحانه : « قل ائنيكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين » الى قوله « فقضاهن سبع سموات في يومين » (٢) وذلك يبلغ ثمانية ايام .

والجواب : أن المراد بقوله « قل ائنيكم لتكفرون بالذى خلق الارض في يومين » الى قوله « وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام » مع اليومين المتقدمين ولم يرد بذكر الأربعة غير ما تقدم ، وهذا كما يقول الفصيح :

« سرت من المدينة الى جدة في عشرة ايام ، وسرت الى مكة المكرمة في ثلاثة عشر يوماً » ولا يريد أنها عدا العشرة ، بل يريد مع العشرة ثلاثة . ثم قال تعالى « فقضاهن سبع سموات في يومين » وأراد سوى الأربعة ، وذلك لا مخالفة فيه ، لأن المجموع يكون ستة (٣) .

النموذج السادس :

قوله تعالى : « وقفوهم انهم مسئولون » (٤) وقوله « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين » (٥) مع قوله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » (٦) .

والجواب : أن هذا يحمل على اختلاف الأماكن ، لأن في القيامة مواقف كثيرة ، فموضع يسأل ويناقش وموضع آخر يرحم ويلطف به ، وموضع آخر يعنف ويوبخ - وهم الكفار - وموضع آخر لا يعنف - وهم المؤمنون .

وجواب آخر : أن السؤال المثبت هو سؤال التبكيت والتوبيخ والتفريع والمنفى هو سؤال المعذرة وبيان الحجة ، أى : لا يسألون سؤالاً حقيقياً ، لأنه لا عذر ولا حجة لهم في هذا اليوم (٧) .

(١) ق ٣٨ (٢) فصلت ٩ - ١٢

(٣) البرهان للزركشى ٦٣/٢ بتصرف .

(٤) الصافات ٢٤ (٥) الاعراف ٦٠

(٦) الرحمن ٣٩ (٧) الاتقان ٣/٩٥

★ وكذلك : يحمل أيضا قوله تعالى :

« ولا يكلمهم الله يوم القيامة » (١) مع قوله « فوريك لنسألهم أجمعين
عما كانوا يعملون » (٢) •

فالمنفى كلام التلطف والاكرام ، والمثبت سئول التوبيخ والتقريع
والاهانة ، فلاتنا في اذن •

النموذج السابع :

قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين
الف سنة » (٣) وقوله سبحانه « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج
اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » (٤) وقوله « وان يوما عند
ربك كآلف سنة مما تعدون » (٥) •

والجواب : وقاله ابن عباس : يوم القيامة حساب خمسين ألف سنة ،
والسموات والأرض خلقت في ستة أيام ، كل يوم يكون ألف سنة مما نعد
« يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف
سنة » قال : ذلك مقدار المسير • فلو كان مسير الأمر بين السماء والأرض
بحسابنا لا يستغرق ألف سنة ، مع أنه يقضى في يوم بل في طرفة عين فيكون
اليوم الذي أخبر الله عنه في السجدة وفي الحج من الايام التي عند الله وهي
التي خلق فيها السموات والأرض ، وكل يوم منها ألف سنة من سنى الدنيا • •
وأما في سورة المعارج ، فان المراد به أنه لثقله على الكافرين واستطالتهم له
وصعوبته وهو له عليهم يصير بخمسين (٦) ألف •

(٢) الحجر ٩٢ ، ٩٣

(٤) السجدة آية ٥

(١) البقرة ١٧٤

(٣) المعارج ٤

(٥) الحج ٤٧

(٦) درة التنزيل للخطيب الاسكافي ٣٧٧

وقال البعض عن اليوم في آية الحج : أنه يوم العذاب الذى يقع بهم في الدنيا وهم يستعجلونه ، فيعلمهم تعالى أنه يوم خطير من أيام الله وكأنه لما فيه من العظائم ألف سنة مما تعدون ، فعذابه في يوم واحد عذاب ألف سنة ، وذلك لما يتضاعف عليهم من الآلام والغموم ، بدليل قوله قبله « **ويستعجلونك بالعذاب** ٠٠ » فجهلهم باستعجالهم العذاب الذى هذا وصفه (١) .

وذهب آخرون الى أن المراد باليومين الآخرين يوم القيامة ، وأنه باعتبار حال المؤمن والكافر ، بدليل قوله « **يوم عسير على الكافرين غير يسير** » (٢) ويقصر على من دونه فيكون كالف سنة ، ثم يقصر على حسب درجة الاسان . كما ورد في الحديث الذى أخرجه الامام أحمد عن أبى سعيد قال : قيل لرسول الله ﷺ - « **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** » ما أطول هذا اليوم : فقال رسول الله ﷺ : « **والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا** » .

وقال الخطيب الاسكافى (٣) : ويجوز أن يكون يوم القيامة يوما بلا آخر ، وفيه أوقات مختلفة طولا وقصرا ، كما كان في أيام الدنيا ، فكان الوقت بين صلاة الفجر وصلاة الظهر أطول مما بين الظهر والعصر ، وكما كان ذلك بين صلاة العشاء الاولى والعشاء الآخرة ، فبعضها ألف سنة وبعضها خمسون ألف سنة . أهـ . ملخصا .

النموذج الثامن :

قوله تعالى « **اتقوا الله حق تقاته** » (٤) مع قوله تعالى « **فاتقوا الله ما استطعتم** » (٥) .

والجواب : وهو مذكور لأبى الحسن الشاذلى رحمه الله - أنه حمل الآية الاولى على التوحيد وأصول العقيدة ، وحمل الثانية على الأعمال .

(١) المرجع السابع (٢) المدثر ٩ ، ١٠

(٣) درة التنزيل وغرة التأويل ٣٧٨

(٤) آل عمران ١٠٢ (٥) التغابن ١٦

والمقام يقتضى ذلك لأنه قال بعد الأولى « ولا تموتن الا وانتم مسلمون » (١) .

فلا تنافى اذن . ولا داعى للقول بالنسخ بينهما كما ذهب لذلك البعض

النموذج التاسع :

قوله تعالى : « فان خفتن الا تعدلوا فواحدة » (٢) مع قوله فى السورة ذاتها : « ولن تستطيعن ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة .. الآية » (٣) .

فالأولى تفيد امكان العدل . والثانية تنفيه .

والجواب : ان المراد بالعدل فى الأولى : العدل بين الأزواج فى توفية حقوقهن المادية من مسكن ومبيت ومطعم ومعاشرة بالمعروف ، وهذا ممكن الوقوع وعدمه .. والمراد به فى الثانية : الميل القلبى : فالانسان لا يملك ميل قلبه الى بعض زوجاته دون بعض . لكن لا يخرج ذلك عن امكان العدل فى الأولى .

عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك .. الخ . تملك ولا أملك » يعنى القلب (٤) .

النموذج العاشر :

قوله تعالى : « ان الله لا يأمر بالفحشاء » (٥) مع قوله « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٦) .

(١) البرهان ٥٧/٢ (٢) النساء ٣ (٣) النساء ١٢٩
(٤) تفسير ابن كثير وقال : أخرجه أحمد وأهل السنن وهذا لفظ أبى داود واسناده صحيح ١٠ هـ .

(٥) الأعراف ٢٨ (٦) الاسراء ١٦

والجواب : أن الأولى في الأمر الشرعى والثانية في الأمر الكونى
بمعنى القضاء والتقدير .

فيثول المعنى الى : اذا أردنا أن نهلك قرية أرناهم وملكانهم فافسدوا
والمراد بالأمر فى الآية الأولى أنه لا يأمر به شرعاً ولكن قضاء لاستحالة أن
يجرى فى ملكه ما لا يريد . وفرق بين الأمر الكونى والدينى .

ويمكن القول بأن متعلق (أمرنا) فى الآية الثانية محذوف تقديره :
أمرنا مترفيها بالطاعة ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وعلى
هذا فلا تعارض .

النموذج الحادى عشر :

قوله تعالى « كتاب أحكمت آياته » (١) وقوله « الله نزل أحسن
الحديث كتابا متشابها مثانى » (٢) وقوله « هو الذى أنزل عليك الكتاب
منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (٣) .

والجواب : أنه لا تعارض بينها ، لأن معنى احكامه كله أنه منظم رصين
متقن متين لا يتطرق اليه خلل لفظى ولا معنوى والقرآن كله هكذا .

ومعنى كونه متشابها كله : أنه يشبه بعضه بعضا فى احكامه وحسنه
وبلوغه حد الاعجاز فى الفاظه ومعانيه فلا تفاضل بين كلماته وآياته فى هذا
الحسن والاحكام والاعجاز .

ومعنى أن بعضه محكم وبعضه متشابه : فلأن منه ما اتضحت دلالاته
وهو المحكم ومنه ما خفيت دلالاته وهو المتشابه .

(١) هود ١

(٢) الزمر ٢٣

(٣) آل عمران ٧

النموذج الثانى عشر :

قوله تعالى « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » (١) مع قوله « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » (٢) فقد يظن أن الوجل خلاف الطمأنينة .

والجواب : أن الطمأنينة انما تكون بانشرح الصدر بمعرفة التوحيد والوجل يكون عند خوف الزيغ عن الهدى فيوجل القلب لذلك ، فهما وجهان باعتبارين مختلفين ، فلا تعارض .

وقد جمع الله بينهما فى قوله « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهذى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » (٣)

النموذج الثالث عشر :

قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا » (٤) .

فانه يدل على حصر المانع من الايمان فى أحد هذين الشيئين ، وقد قال تعالى فى الآية الأخرى : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » (٥) فهذا حصر فى ثالث غيرهما .

والجواب : كما ذكر عن العز بن عبد السلام: أن معنى الآية الأولى : وما منع الناس أن يؤمنوا الا ارادة أن تأتيهم سنة من الخسف وغيره أو يأتيهم العذاب قبلا « فى الآخرة ، فأجبرأنه أراد أن يصيبهم أحد الأمرين ولا شك أن ارادة الله مانعة من وقوع ما ينافى المراد ، فهذا حصر فى السبب الحقيقى لأن الله هو المانع فى الحقيقة .

(٢) الأنفال ٢

(٤) الكهف ٥٥

(١) الرعد ٢٨

(٣) الزمر ٢٣

(٥) الاسراء ٩٤

ومعنى الآية الثانية : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى »
الا استغراب بعثة بشر رسولا ، واستغرابهم ليس مانعا حقيقيا بل عاديا لجواز
وجود الايمان معه بخلاف ارادة الله تعالى فهذا حصر في المانع العادى
والأولى حصر في المانع الحقيقى فلا تنافى ١٠ هـ .

ويرى البعض هنا : أنهم كانوا ينكرون الرسائل لشبهه بشرية الرسل
وفى الوقت نفسه كانوا يرحبون بسنة الاولين ونزول العذاب عليهم كما فى
قوله تعالى « واذا قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا
حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (١) وقوله « قالوا لو شاء ربنا
لأنزل ملائكة » (٢) .

والأمران كأنهما وجهان لحقيقة واحدة والمعنى : وما منع الناس
أن يؤمنوا الا انكارهم بشرية الرسل وترحيبهم بالعذاب عنادا واستهزاء .

ويجوز أن يراد بالناس فى كل موضع غير الذين أريدوا به فى الموضع
لآخر فبعضهم مانعه ما جاء فى الآية الأولى وبعضهم مانعه ما جاء فى الآية
الثانية .

النموذج الرابع عشر :

قوله تعالى « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه
الا يفلح الظالمون » (٣) وقوله « فمن أظلم من كذب على الله وكذب بالصدق
اذ جاءه اليس فى جنهم مثوى للكافرين » (٤) مع قوله « ومن أظلم ممن ذكر
بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه » (٥) « ومن أظلم ممن منع
مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها الآية (٦) الى غير ذلك
من الآيات .

- (٢) فصلت ١٤
(٤) الزمر ٣٢
(٦) البقرة ١١٤

- (١) الانفال ٣٢
(٣) الأنعام ٢١
(٥) الكهف ٥٧

ووجهه : أن المراد بالاستفهام هنا النفي والمعنى : لا أحد أظلم .
فيكون خبرا وإذا كان خبرا وأخذت الآيات على ظواهرها أدى الى التناقض .
وأجيب بأوجه :

منها تخصيص كل موصول بمعنى صلتته في موضعه أى لا أحد من
المعاندین أظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى
على الله كذبا ، وإذا تخصص بالصلات زال التناقض .

ومنها : أن نفي الأظلمية لا يستدعى نفي الظالمية . وإذا لم يدل على
نفي الظالمية لم يلزم التناقض . لأن فيها اثبات التسوية في الأظلمية .

ويصير المعنى : لا أحد أظلم ممن افترى وممن منع ونحوها ، ولا اشكال
في تساوى هؤلاء في الأظلمية ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر كما
إذا قلت : لا أحد أفقه منهم . أ هـ . كما ذكره أبو حيان .

وحاصله : أن نفي التفضيل لا يلزم منه نفي المساواة .

وقال البعض : هذا استفهام مقصود به التهويل والتفطيع من غير قصد
اثبات الأظلمية للمذكور حقيقة ولا نفيها عن غيره .

ويمكن القول أيضا :

بأن من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها هو لا محالة يكذب بآيات ربه
ومفتر على الله الكذب بهذا ، ولن يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعى
في خرابها الا معرض عن آيات ربه مكذب بها مفتر على الله فهي صفات متلازمة
لا تنفك عادة . ولا شك أن شخصا هذه هي صفاته يكون قد بلغ الغاية في
الظلم فلا أحد يدانيه أو يساويه . وبأى جواب من هذه يزول الاختلاف ويتم
الاثتلاف .

الأسباب الموهبة للاختلاف

يتضح من النماذج السابقة أن للاختلاف أسباب وهى اجمالا - كما ذكرها الزركشى :

الأول : وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى ، فيراد به فى كل موضع حالا وطورا غير الذى أريد به فى الآخر ، كقول الله تعالى فى خلق الإنسان انه « من تراب » (١) ومرة « من حمأ مسنون » (٢) والحمأ : طين أسود منتن . ومرة « من طين لازب » (٣) أى الثابت الشديد الثبوت . ومرة « من صلصال كالفخار » (٤) والصلصال : الطين الجاف . وأصله : تردد الصوت من الشيء اليابس (٥) . فهذه ألفاظ مختلفة ومعانيها فى أحوال مختلفة حسب أطوارها ومرجعها كلها لأصل واحد وهو التراب الذى انتقل مع الماء الى الأطوار المذكورة .

الثانى : لاختلاف الموضوع - كما مر النموذج الأول والثانى والسادس والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر -وغيرهم مما ذكره الزركشى تحت هذا السبب .

الثالث : لاختلافهما فى جهة الفعل : كقوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ٠٠ » (٦) أثبت القتل والرمى على جهة الكسب لهم ونفاه عنهم على جهة التأثير والتبليغ والاصابة ، اذ ذلك بفعل الله تعالى .

الرابع : لاختلافهما فى الحقيقة والمجاز : كقوله تعالى « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ٠٠ » (٧) أى : سكارى من الأهوال مجازا ، لا من الشراب حقيقة .

-
- | | |
|--|-----------------|
| (١) آل عمران ٥٩ | (٢) الحجر ٢٦ |
| (٣) الصافات ١١ | (٤) الرحمن ١٤ |
| (٥) أنظر : المفردات للراغب الأصفهانى . | |
| (٦) الأنفال ١٧ | (٧) الحج ٢ |

الخامس : بوجهين واعتبارين : وهو الجامع للمفترقات . ومنه ما مر

في النماذج الثالث والخامس والسابع والثاني عشر . وغيرها مما ذكره
الزركشى في برهانه .

وفي الختام : هذا موضوع طويل اذ يتصل به ما يتعلق بمتشابه النظم
في القرآن الكريم اذ يكون الموضوع واحداً ويعبر عنه بتعبيرات مختلفة
لمقتضيات الفصاحة والبيان تكلم عنها الكثير من المفسرين في كتاباتهم
كالبقاعي في نظم الدرر والفخر الرازي والألوسي وغيرهم وأفرد له الخطيب
الاسكافي كتاباً فريداً سماه « درة التنزيل وعزة التأويل » في متشابه نظم
القرآن الكريم .

فسبحان من أودع آياته أسرار حكمه وأبكم بفصاحته الفصحاء وأعجز
ببيانه البلغاء والحكماء . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير خلقه وخنام
رسله وعلى آله وصحبه ومن والاه والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

★ نقاط المبحث :

- ١ - تعريف موهم الاختلاف .
- ٢ - القرآن منزّه عن الاختلاف .
- ٣ - أنواع الاختلاف .
- ٤ - منشأ هذا المبحث .
- ٥ - نماذج من الآيات القرآنية التي ظاهرها الاختلاف وحقيقتها
الاتّلاف (أربعة عشر نموذجاً) .
- ٦ - الأسباب الموهمة للاختلاف .
- ٧ - الخاتمة .